اللبنانيّون في ساحل العاج

١٩٠٠-١٩٨٦

إهداء

إلى وطني لبنان المكابد
لأنّ ترنّق على أفقه
شمس الحريّة والسلام.
إلى كلّ مهاجر يحمل
الوطن تميمة في تحرّيه
النجاح وتحدّي الرّغام.
إلى "أبيدجان" الباقية في
ذاكرة أولادي مرتعًا لأبهى
سنيّ الطفولة والأحلام.
دنيا

شكرًا

للأستاذ عليّ اسماعيل حلاّق على مساهمته في الترجمة من الفرنسيّة إلى العربيّة.

وللدكتورين عبد الله الملاّح وعصام حوراني على مراجعتهما للنسخة العربيّة.

دنيا

مقدمة

الواقع أنّ الهجرة هي ظاهرة عالميّة، وأنّ غالبيّة الشعوب قد اضطرّت للنزوح عن أوطانها في حقبات معيّنة من تاريخها، بسبب الحروب أو الكوارث الطبيعيّة أو لأسباب أخرى لازمت الإنسان منذ انتظامه في الحياة الجماعيّة كالرق والإضطهاد السياسيّ أو البحث عن حياة أفضل يسودها الاستقرار والرخاء. وقد برزت هذه الظاهرة في الآونة الأخيرة كمحرك للديناميّة الاجتماعيّة الحديثة، وكعامل فاعل في مجال العلاقات الدوليّة، بحيث أصبح التواصل بين الشعوب من خلالها هو القاعدة السائدة في هذا العصر. هذا، وتندرج الهجرة ضمن مجموعة معقّدة من العلاقات الإنسانيّة، فوجودها يفترض وجود حاجتين: أولاهما تتمثّل في النقص الحاصل في البلد المضيف أكثر، مما في ميدان اليد العاملة أو الاختصاصيين، وفي نقطة ضعف ديمغرافيّة في هذا المجال أو ذاك، وتتمثّل الثانية منهما في البلد المصدِّر للعنصر الإنسانيّ بوجود عوامل، هي بالنتيجة نقيض العوامل الآنفة الذكر، فينشأ عن هذا التداخل تكاملٌ حيويٌّ بين البلدين يشوبه أحيانا توتّر في العلاقات مردّه إلى سوء التفاهم أو اختلاف الدوافع، ففي هذا الإطار "يمكن اعتماد الهجرة، بما تطرحه من مشكلات كمقياس اجتماعيّ مهم، ولا سيما على صعيد التعدديّة الإثنيّة والثقافيّة.

لكن هذه الظاهرة لم تشكّل الطابع المميز لشعب ما، كمثل ما ارتبطت بالشعب اللبنانيّ، الذي ما برح على مرّ العصور، متسمًا بصفة المهاجر الدائم، كما لو أنّ قدره الحتميّ يدفعه، طوعًا أو قسراً، للنزوح عن وطنه بموجات هجرة لا تنقطع، قد تكون متّصلة بجذوره الفينيقيّة أو بكونه بلدًا صغيرًا يقع في منطقة جغرافيّة واستراتيجيّة مهمّة، ما يجعله عرضة للمطامع.

ففي كل مرّة تنحسر فيها موجة نزوح اللبنانيين نحو أمصار جديدة، كانت تستجدّ أحداث وتبرز أسباب قاهرة، تغذّي المدّ الاغترابيّ وهاجس النزوح لدى اللبنانيين، وعوض أن يجابه هؤلاء الواقع ويتمسكوا بأرضهم من أجل إنقاذها، كانوا يتذرّعون بالظّروف للفرار من هذا الواقع والاستقرار، حيث تبدو فرص العيش أكثر ملاءمة، لينصرفوا للنشاطات التجاريّة المجزية.

إنّ لبنان الذي تمزّقه الاضطرابات منذ أعوام طويلة، كان مسرحًا لموجات نزوح كثيفة تبرز أهميّتها بكون عدد المهاجرين اللبنانيين والمتحدّرين منهم، يساوي أو يفوق عدد المقيمين فيه... وهذا ما يعلّل إنشاء "وزارة الشؤون الخارجيّة والمغتربين" ويبرّر الإلحاح في طلب إنشاء وزارة مستقلّة مهيّأة للاهتمام بالتّراث الإنسانيّ اللبنانيّ، المنتشر في شتّى أنحاء العالم. كما تتكاثر النداءات من أجل الحفاظ على وحدة شطري لبنان (المقيم والمغترب)، وذلك بنوع من التمثيل البرلمانيّ يتمّ عبر السفارات اللبنانيّة في الخارج.

إن قضيّة الهجرة كانت وستبقى محط أنظار الرواة وموضوع حكايات ملحميّة، كما أنها موضوع بحوث جديّة؛ فهي ميدان غنيّ وفسيح، مجهول في بعض جوانبه، فالمهاجر الذي يبلغ أقاصي الأرض، يبني أمجادًا ويسطع نجمه حينًا، وتضيع أخباره أحيانًا في مجاهل الأقطار، تاركًا مغامرته تغوص في النسيان، وقد عانى الكثير وبذل أجسم التضحيات. إنّ المدّ الإغترابي، وأنا جزء منه، ينتزع من كل بيت في لبنان فردًا على الأقل. ويؤلمني أن أرى الإهتمام بالمهاجر، ينحصر في تنظيم رحلات في الوطن الأم أو في حفلات فولكلوريّة تُقام على شرفه تقديرًا لإسهامه في تنمية الدخل القوميّ. من هذا المنطلق نقدّم بحثنا هذا، المتمحور حول الجالية اللبنانيّة في ساحل العاج، لعلّنا نستطيع في هذا البلد النائيّ أن نعوّض قليلاً من حب ذوينا ومودّتهم. ولن نألوَ جهدًا في مجابهة مختلف المصاعب والمشكلات، التي تعترض سبيل تكيّف المهاجر واندماجه في عمليّة التكامل الاقتصاديّ وهو الذي لا يقنع باستقرار نسبيّ، بل يتوق إلى الاعتراف به كمواطن عاجيّ، بكلّ ما للمواطنة من معنى.

هذا الكتاب مبنيّ على أطروحة دكتوراه في علم الإجتماع البشريّ (sociologie Ethno–)، نُوقشت عام ١٩٨٦ في كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة في جامعة نيس – فرنسا، وهذا ما يفسّر توقّف البحث في عام ١٩٨٦. وقد رأينا في نشرها باللغة العربيّة فائدة للدراسات المستقبليّة حول هجرة اللبنانيين إلى أفريقيا عامّة، وإلى ساحل العاج خاصّة.

هَدَفَ البحثُ إلى أمور ثلاثة:

أ – التحريّ عن الانتماء الجغرافيّ للبنانيين الموجودين في ساحل العاج. هذا الانتماء لا يزال حتى الآن في خانة المجهول، أو على الأقل ميدانًا بكرًا.

ب – بحث الوضع الحاليّ للهجرة اللبنانيّة، لتسليط الأضواء على الأوضاع المعيشيّة للمهاجرين الأوائل الذين اندمجت غالبيتهم في عملية التكامل الاقتصاديّ، ويعيشون بارتياح وانسجام في مجتمع غريب. كما سنسلط الأضواء على أوضاع الوافدين الجدد الذين يشعر كل فرد منهم أنّه يواجه بمفرده حياة اجتماعيّة يجهل ماهيتها، وظروف عمل يجهل مسالكها. فعليه إذًا أن يكتسب مهارات مهنيّة جديدة، وأن يسعى إلى تحسين وضعه المادّي، وبالتالي عليه أن يؤسّس أسرة وأن يعيلها، وأن يؤمّن مستقبلاً أفضل بتحقيق نسب أعلى من الأرباح، وإلا يفوته القطار، فيغزوه اليأس ويتقوقع، محتملاً شظف العيش في الغربة. على أن يخيّب أمل ذويه فيتعرّض لمذلّة العودة إلى قريته صفر اليدين، كما نزح عنها.

ج – أما الهدف الثالث فهو التوصّل إلى صياغة مقترحات تنصبّ على تنظيم وزيادة الخدمات الاغترابيّة، والتي تضطلع بدورين أساسيّين، دور وقائيّ ودور ماديّ مساعد. من أجل مواجهة المشكلات التي تعترض سبيل المهاجرين، يكفي أن يكون الانسان غريبًا كي تحفّ بطريقه المصاعب وليس أقلّها عدم التكيّف الاجتماعيّ والاقتصاديّ.

استلزمت طبيعة هذه الدراسة منهجيّة، اعتمدتُ في جانب منها، على التحليل الكميّ وفي الجانب الآخر على التحليل النوعيّ، بالإضافة إلى إجراء تحقيق ذي ثلاثة وجوه: وجه كتبيّ، يتيح تتبع

المجرى التاريخيّ للهجرة التي تشكل إحدى ثوابت التاريخ اللبنانيّ، ووجه وثائقيّ يتيح لنا أن نضع أيدينا على جذور التوطّن في ساحل العاج، فنهتدي إلى إيضاح حقيقة الحقبة المدروسة. ووجه ثالث تمّ عن طريق الاستمارة، التي اعتمدناها كعامل أساسيّ في سياق الدراسة، والتي يتكشّف منها وضع الهجرة في الحقبة المدروسة وتتوضّح بها المشكلات الاجتماعيّة والاقتصاديّة، التي أفرزتها حركة الهجرة.

ولقد دفعت بنا ندرة المؤلّفات المهتمّة بشؤون اللبنانيين في ساحل العاج إلى البحث والتنقيب في دفائن المحفوظات في المؤسّسات التالية، في ساحل العاج:

- الأرشيف الوطنيّ لساحل العاج، وينقسم إلى قسمين:

١ - الوثائق والميكروفيلم العائدة للمرحلة السابقة للعام ١٩٢٥، حيث لا ذكر إلا للبنانيين عبر وثائق ضئيلة غير ذات أهميّة، وهي عبارة عن رسائل من مصلحة الجمارك يعود تاريخها للعام ١٩٢٢، تشير إلى كتب وصحف باللغة العربيّة مرسلة إلى حسين صعب ومحمد برجي في "غران بسّام".

٢ - محفوظات وزارة الداخليّة، بدءًا من العام ١٩٢٥ حتى أيامنا هذه، علما بأن الوثائق العائدة لما بعد الحرب العالميّة الثانية ليست في متناول القرّاء بعد. ويلاحظ أن أخبار اللبنانيين تكثر في الجريدة الرسميّة وفي الصحافة المهتمّة بشؤون المستعمرة.

- السفارة اللبنانيّة القائمة منذ الستينيّات، تاريخ استقلال ساحل العاج. إن المعلومات والمحفوظات الموجودة في هذه السفارة على جانب كبير من الأهميّة، حتى العام ١٩٧٥، وهو التاريخ الذي تكثّف فيه المدّ الاغترابي، نتيجة التسهيلات الممنوحة من قبل سلطات ساحل العاج للبنانيين الهاربين من الحرب الأهليّة، الساعين إلى إيجاد ملاذ آمن وعمل يعود عليهم وعلى البلد المضيف بالفائدة والكسب الماديّ.

– مركز الجامعة اللبنانيّة الثقافيّة في العالم – فرع أبيدجان، وهي مؤسسة عالميّة ترعى تراث لبنان الإنسانيّ في العالم. وتعود أهميّة هذا الفرع إلى كثرة عدد اللبنانيين في ساحل العاج، وإلى المكانة المرموقة التي يحتلّونها في اقتصاد البلد المضيف. إنّ غاية هذا التحقيق هي تحديد ظروف الهجرة إلى هذا البلد والإحاطة بها. وهي حركة تختلف في أسبابها ونتائجها عن حركة الهجرة إلى أميركا.

إضافة الى الاستمارة التي تضمّنت تسعة وخمسين سؤالاً، يحتمل بعض منها إجابات حرّة، فلقد قمنا بإجراء مقابلات عبر أسئلة حرّة، وُجّهت إلى عدد من الأشخاص، ممّا ساعدنا على تحديد التغييرات الضروريّة لطرح الاستمارة بشكلها النهائي، وكوني مراقبة مهاجرة، فذلك ساعدني، ولو في حدود ضيّقة، في مهمّتي هذه. فالمهاجر اللبنانيّ الذي يُظهر الحذر لدى مقابلته محقّقًا غريبًا عنه، قد اطمأنّ إلى مواطَنته. لكنّ الصراحة المطلقة لم تتوافر، وظلّ الغموض يكتنف الأوضاع الاقتصاديّة والخاصّة لهذا المغترب.

إنّ غالبيّة الذين أجرينا معهم المقابلات قد تكلّموا بإسهاب عن الصعوبات التي واجهوها لدى وصولهم، كما تحدّثوا عن فقدان وسائل الرفاهيّة بخاصّة في المناطق الداخليّة، وعن سوء المناخ الذي تسبّب بالوفاة المبكرة للعديد من أقاربهم وأصدقائهم وأبناء بلدهم.

لقد تعذّر علينا أن نسمع أي مهاجر يتحدّث عن ماضيه في المرحلة السابقة لوصوله إلى ساحل العاج. حتى الوافدون من مالي ومن غينيا أو من السنغال... قد امتنعوا عن الإجابة. واستطعنا أن نكشف بواسطة أحد أصدقائهم أو أقاربهم أو جيرانهم عن البلد الذي جاؤوا منه وأسباب مجيئهم. وقد شكا اثنان من المتاعب الصحّيّة التي تلازمهما من جرّاء طول الإقامة. وبالنظر إلى الوضع القائم في لبنان في أثناء إجراء البحث، فإن الكثيرين لم يروا أي أمل في العيش بعيدًا عن البلد المضيف، ولا يرون وجود أي ضير في البقاء على أرضه، مع كل ما يستتبع هذا البقاء من مخاوف على مستقبل الأولاد، الذين سوف يعانون نقصًا ثقافيًا فادحًا لدى عودتهم إلى لبنان،

كونهم يجهلون اللغة العربيّة. لذلك، لن تتاح لهم فرص العمل لا في القطاع العام ولا حتى في القطاع الخاص. وفي ظلّ الأوضاع الراهنة في لبنان، يستحيل على المهاجر أن يعهد بأولاده إلى ذويه أو إلى المدارس الداخليّة. من هنا تبرز الحاجة الملحّة إلى إنشاء مدرسة لبنانية ثانوية في ساحل العاج.

دنيا فيّاض طعّان